استدعاء الشخصيات التأريخية:-

تعد الشخصيات التاريخية، هي عنصرا من عناصر التراث، ومعطى من معطياته، كما تعد تقنية استدعاء الشخصيات التراثية التاريخية، هي إحدى الوسائل التعبيرية، التي يلجأ إليها الشاعر المعاصر، لتحديث بنية القصيدة العربية، بغية الوصول لتشكيل رؤاه للعالم، والتعبير عما يحس به من معاناة أمته العربية ومشكلاتها. و دليل واضح أيضا على أزمة الإنسان العربي في عالمنا المعاصر كذلك. وبهذا يكون استدعاء الشاعر لهذه الشخصيات التراثية، ليس لمجرد ذكر أسمائها أو الإخبار عنها فحسب، بل هو المعرفة الواعية لملامح تلك الشخصيات، والوقوف على أبعادها الدلالية، ومن ثم المقابلة بين هذه الملامح والقضايا التي يعيشها الشاعر في واقعه، ثم التعبير عن هذا الواقع من خلال الشخصية المستدعاة، وبطرق تعبيرية مختلفة، تبعد كثيرا عن مجرد ذكر الأسماء، أو سرد الأحداث كما وردت في كتب التاريخ. كما تعد الأحداث التاريخية والشخصيات ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها والواقعي، بل إن لها إلى جانب ذلك دلالاتها الشمولية ((فدلالة البطولة في قائد معين، أو دلالة النصر في معركة معينة تظل بعد انتهاء الوجود الواقعي لتلك الشخصية أو تلك المعركة، وباقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة)) [1].

إذن فإن التاريخ ليس مجرد وصف لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها فقط إنما هو((إدراك إنسان معاصر أو حديث له، فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة لأية فترة زمنية من هذا الماضي)) [2] ومن هنا فإن الشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد نقلها للمتلقي، ومن ثم فقد انعكست طبيعة المرحلة التاريخية والحضارية، التي عاشتها الأمة العربية في الحقبة الأخيرة، وإحباط الكثير من أحلامها، وخيبت أملها في الكثير مما كانت تأمل فيه من الخير، وسيطرة بعض القوى الجائرة، على بعض مقدراتها، والهزائم المتكررة التي ضاقت بها برغم عدالة قضيتها، على نوعية الشخصيات التاريخية التي يستدعيها الشعراء المعاصرون.

هذا وقد عمل الشاعر المعاصر على استدعاء الشخصيات التراثية التاريخية بوجوه متعددة، (فمن استدعاء جزئي في داخل النص، إلى كونه محورا له. أما من حيث التوظيف فيتنوع بين استغلال الشاعر لطاقات الشخصية الإيحائية ودلالاتها، أو التركيز على جانب من جوانبها، إلى خلع صفات الشخصية التراثية على شخصية

(1) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 120.
(2) دراسة الأدب العربي، مصطفى ناصف (د ط 1981م) الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص 205.

معاصرة أو واقع معاصر. ومن حيث طبيعة التوظيف فقد يقف الشاعر بالشخصية عند حدود السرد، والتسجيل لأحداثها، وأحيانا أخرى يستغلها لإبراز مفارقات الحياة، أو يوظفها بوصفها قناعا رمزيا، يقارن من خلاله بين الماضي بشموخه وجلاله، والحاضر بوهنه وضعفه، وكذلك قد يلتمس علاج مشكلاته في الشخصية التراثية) [(1)].

غير أن استدعاء الشخصيات التراثية التاريخية، وتوظيف أسماء الأعلام منها في النص الشعري، يتمتع بحساسية خاصة، لأن هذه الأسماء بطبيعتها ((تحمل تداعيات معقدة، تربطها بقصص تاريخية وأسطورية، وتشير قليلا أو كثيرا إلى أبطال وأماكن تنتمي إلى ثقافات متباعدة في الزمان والمكان)) [(2)] لهذا فإن إدراك القارئ لدلالة مثل هذه النصوص، التي تقوم بتوظيف أسماء الأعلام التراثية التاريخية، تتوقف على معرفة القارئ بهذه الشخصيات، وإمكانية تعيينه لها في السياق.

وقد كان في التاريخ الكثير من الشخصيات التي خلدها، ولكن دخولها هذا التاريخ لم يكن اعتباطا، وإنما للدور المتميز الذي تمتعت به في حقبة من الزمن مما فتح أمامها الباب، لدخول خلد التاريخ، وهذا الدور هو عبارة عن عنصر ابداعي في مجال معين من مجالات الحياة الإيجابية، مما يجعله من قيم وعادات وتقاليد مثلى يعتز بها العربي منذ القدم وعلى مر العصور، ويتقدم تلك القيم والعادات الجود والكرم، والقوة والشجاعة والحكمة والدهاء، والعزيمة والعدل والعفة، والفصاحة والبلاغة وغيرها من الخصال الحميدة، في الوقت التي هناك من الشخصيات من خلدها التاريخ، ولكن بشكل سلبي، لما حملته من دلالات الخسة والحقارة والخديعة، والكذب والخيانة والكفر والفسوق. وبكل صفة من هذه الصفات التصقت بها شخصية أو أكثر في عقلية الإنسان العربي، لما امتازت به عن غيرها في هذا الجانب، حتى أصبحت هذه الشخصية معيارا يقاس به، من خلال التشبيه أو الموازنة بينه وبين غيره، (وقد استلهم الشعراء هذه الشخصيات بدلالتها الكلية، وبما تشتمل عليه من قابلية للتأويلات المختلفــة وهذه الدلالة هي التي يستغلها الشاعر، في التعبير عن بعض جوانب تجربته، ليكسب هذه التجربة نوعا من الكلية والشمول، وليضفي عليها ذلك البعد التاريخي الحضاري، الذي يمنحها نوعا من جلال العراقة) [(3)].

هذا وسنحاول من خلال هذا المبحث الوقوف على توظيف هذا العنصر من عناصر التراث عند بعض الشعراء، وعند الشاعر الشارف موضوع هذه الدراسة كذلك .

---

(1) ينظر: استدعاء شخصية الحسين بن علي في الشعر العربي الحديث، محمد عبد الرحمن إبراهيم (سنة 2002م) اطروحة لنيل درجة، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم قسم البلاغة والنقد الأدبي المقارن، ص 2.

(2) تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، ص65.

(3) ينظر استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 151.

فمن الأمثلة والشواهد على استدعاء الشخصيات التاريخية، ما قام به الشاعر أبو تمام من تكرار لإستدعاء بعض أسماء الأعلام، وبخاصة في قصائد فخره ومدائحه، حتى بدت سمة من سماتها، وهي كذلك من المواد التاريخية الواقعية التي حملت هالات الفخر القديم، والمآثر الحميدة، كالرؤساء والقادة والفرسان والأجواد، أو من ذوي الصفات والسجايا المستحبة، أو من كانت لهم مواقف مشهورة، أو اشتهروا بسمات خاصة. ففي معرض حديثه عن فتح عمورية، يشير في نصه إلى الإسكندر المقدوني، وكسرى وأبي كرب وهم من ملوك التبابعة، في قوله:

وَبَــرزَ ةُالوَجــهِ قَــدْ أعيَــتْ رِيَاضَــتُهَا		كِسرَى وَصَدّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرِبِ
بِكــرٌ فَمَــا افتَرَعتهَــا كَفّ حَادِثَــةٍ		ولاَ تَرَقّــت إِلَيهَــا هِمّــةُ النُّــوبِ
مِــن عَهــدِ إِســكَندَرٍ أَو قَبــلَ ذَلِكَ قَــد		شَابَت نَوَاصِي اللَيَالِي وَهِيَ لَم تَشِبِ
حتّى إذا مَخّضَ اللهُ السنِينَ لَهَــا		مَخضَ البَخِيلَةِ كَانَت زُبدَةَ الحِقَبِ [1]

فأبو تمام يبين في هذه الأبيات، عظمة فتح المعتصم لمدينة عمورية، وذلك من خلال الإشارة إلى هذين الشخصين، فعمورية مدينة عريقة قديمة، ومنذ عهد الإسكندر وأبي كرب، هي عصية على الدهر الذي يهرم ويشيب من دونها، ويبدو أن هذه المدينة امتنعت على الفرس، حتى أن كسرى قد أرهق وتعب من محاولة احتلالها وامتلاكها، وكانت فوق مقدرة ملوك التبابعة، على التفكير بها أو إمكانية إقتحامها، وهذا إيحاء بوجود المنعة والتحصينات لحمايتها، وبخاصة أن كسرى كان له هيبته التاريخية، مما يمنح التجربة هالات لا نهائية من الإيحاءات على الفتوح والانتصارات، ومثله كرب وإن كان أقل منه.

ويتواصل استدعاء أبي تمام للشخصيات التاريخية، فيقول في إحدى قصائده:

إنّ ذَرعًا مِرّتَ بِالصّفــ		ــرِ عَــن النَائِبَــاتِ الإِغمَاضِ
غُربَــةٌ تَقتَــدِي بِغُربَــةِ قَيْسِ بنِ		زُهَيرٍ وَالحَارِثِ بنِ مُضَاضِ
فَوَضَــا نُكبَتَــينِ مَــا فَتِــلاَ رَأ		يًــا فَخَافَــا عَلَيــهِ نَكثٌ وَانتِقَاضِ [2]

وكما نلاحظ من خلال الأبيات السابقة، فإن أبا تمام يتواصل مع بعض الشخصيات التاريخية، من أمثال قيس بن زهير[3]، والحارث بن مضاض [4] اللذين عرفا بأشد وأطول غربة عرفتها العرب، وقد قرر أبو تمام أن يغترب غربة تقتدي بغربة هذين الرجلين، وذلك لفراق محبوبته له، فهو يرى أن هذه الغربة أفضل من الصبر على نائبات الدهر.

---

[1] ديوان أبي تمام، ص , 47، 48.

[2] المصدر نفسه , ص 309، 310.

[3] قيس بن زهير: هو أمير عبس وداهيتها الذي قاد قومه في حروب داحس والغبراء، ثم زهد آخر عمره ورحل من ديار قومه إلى عمان. ينظر: خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون (ط3 1989م) مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 4 / 356.

[4] الحارث بن مضاض: من قبيلة جرهم كان يتولى رعاية البيت الحرام، ثم خرج من بلاده حتى ضربت الأمثال باغترابه. ينظر: مروج الذهب للمسعودي، تحقيق محي الدين عبد الحميد (د ط. د ت) دار المعرفة، بيروت، ص 3، 50.

كما يوظف أبو تمام بعض أمراء الدولة الأموية وقادتها، حينما مدح أحمد بن أبي دؤاد، واعتذر إليه مستشفعا بخالد بن يزيد، حيث قال:

فَتَحَزحَ زُوَّرُ المُؤَسَسُ عِندَه   وَبِنَاءُ هَذَا الإِ .ْكِ غيرَ مُشَيَّدِ
وَ لمْ تَكُن ابن أَبِي سُفيَْنِ حَجَا   ملْكَ يَشكُر بَنِي المُلُوكِ سَعِيد
مَا خَالِدٌ دُونَ أَيّوبَ ولاَ   عَبدَ العَزِيزِ لَسْتُ دُون وَلِيدِ (1)

ويؤكد أبو تمام هنا أنه لم يأت إلى الممدوح معتذرا إليه رهبة منه، بل خجلا مما اتهم به، وإن مثله في الاعتذار إليه، مثل يزيد بن المهلب، الذي استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك، وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له، وما خالد الذي يشفع لأبي تمام بأقل منهما، وما ممدوحه بأقل من يزيد بن المهلب.

كما يستدعي الشاعر المتنبي كليب بن ربيعة حينما مدح سيف الدولة حيث قال:

َ لمدحُ ابْن أَبي الهيجَا تَنْجده   الجَاهِلية عَيْن الغَيّ لخَطَلِ
لَيْتَ المَدائحَ تَستَوفِي مَنَاقِبه   فَمَا كُلَيْب وأَهْلُ الأَعْصر الأَوَّلِ
خُذْ مَا تَرَ وَدَع شيئًا سَمِعْتَ بِهِ   في طلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ (2)

ويعرض المتنبي في هذه الأبيات بأبي العباس النامي، حينما مدح سيف الدولة في قصيدة ذكر فيها آباءه الذين كانوا في الجاهلية، فاستنكر المتنبي هذا و طلب إليه أن يمدح سيف الدولة، بما يشاهده منه، لا بما سمعه عنه، فإن الشمس تغنيه عن زحل، كما يغني ذكر حاضر سيف الدولة عن ماضيه، فلا داعي لذكر كليب، وأهل الدهور السابقة.

ويواصل المتنبي مدحه لعبيد الله بن خرسان حيث يقول:

فَمَا نُبُوا حَاتِمًا لو عَقِلُوا   لَكُنْتُ فِي الجُودِ غَايَةَ المَثَلِ (3)

حيث يشير المتنبي في هذا البيت، أن كرم ممدوحه وجوده يفوق حاتم الطائي، ولو نظر الناس بعين العقل لضربوا المثل بكرم ممدوحه وجوده، بدلا من حاتم الذي يضرب به المثل في الجود والكرم، حيث يقال: ((أجود من حاتم)) (4).

---

(1) ديوان أبي تمام، ص 1: 394.
(2) ديوان المتنبي، ص 3: 80، 81.
(3) المصدر نفسه، ص 3: 172.
(4) مجمع الأمثال، أحمد محمد الميداني، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل (د ط 2007م) المكتبة العصرية، بيروت، ص 282.

وكذلك من الخصال الحميدة التي يفتخربها العرب " الشجاعة " والتي اتخذها الشعراء وسيلة للمدح أيضا، عبر استدعاء شخصيات اتصفت بها، ومن بين هذه الشخصيات، شخصية " ربيعة بن مكدم " ولما كان الشاعر يسعى من خلال مدحه، إلى بيان القيم الخلقية والخصال الحميدة، التي يتحلى بها الممدوح، فهو لا يكتفي بالإشارة بقيمة واحدة، وإنما يحاول إبراز أكثر من قيمة، لذلك نجد الشعراء – في الغالب – يجمعون بين الشجاعة والكرم من خلال استدعاء شخصيتي حاتم الطائي، وربيعة بن مكدم.

ومن ذلك قول الأعمى التطيلي، في مدح محمد بن عيسى الحضرمي، فهو كحاتم في الجود والكرم، وفي الشجاعة كابن مكدم، فمنح الشاعر من هذه الشخصيات قيم مثل الكرم والشجاعة، وكل ما توحي به من دلالات، راسخة في ذهن المتلقي، قائلا في ذلك:

نُورٌ رَفَعتُ بِهِ مَنَارَ بَلَاغَتِي　　　فَمَشَت عَلَى سُنَنِ طَرِيقٍ أَقْوَمِ
أَهدَيتُ إِلَيكَ الوَشيَ غَيرَ مُنَمنَمٍ　　　وَجَلَوتُ عليكَ السِّحرَ غَيرَ مُحَرَّمِ
طَلَبتُ ذاكَ بِعَفوِهِ فَلَو بِجُهدِهَا　　　أَبلَيتُهَا لَأَلَاقَ عَصَاكَ وَخَيَّمِ
فِي حَيثُ إِن تَلْقَ فَحَسبُكَ حَاتِم　　　أَو تُضطَهَد فَحَسبُكَ ابن مُكَدَّمِ [1]

وقد استلهم الشاعر مرج الكحل، كذلك شخصية حسان بن ثابت، في معرض حديثه عن إجادته في الشعر، ومفصحا عن بلاغته، فقد أفحم العراق بلاغة، ولو سمع ببلاغته في سوق عكاظ، لأنسى العرب " سحبان " ولو حضي بعصر الشعراء الأوائل كذلك، لما جرى ذكر لحسان كما يزعم، وهذا من سمات عصر الشاعر الذي عاش فيه، حيث يحاول الشعراء اظهار براعتهم، وتفوقهم على الأقدمين في قدراتهم الشعرية. فيقول في ذلك:

نَطَقتُ فَأَفحَمتُ العِرَاقَ بَلاغَةً　　　وَخَرِستُ مِمَّا تَحوِي الإِشَارَةُ خَرسَانُ
وَلَو سَمِعَت سَمعِي عُكَاظُ بَلاغَتِي　　　لِمَا سُمِعَ الأَذَانُ فِي الذِّكرِ سَحبَانُ
وَلَو كُنتُ فِي جِيلِ الأَوَائِلِ لَم يَكُن　　　لِيُذكَرَ إِحسَانٌ فِي الشِّعرِ حَسَّانُ [2]

وقد لاقت أيضا شخصية لقمان اهتماما من قبل الشعراء، فها هو ابن سهل يستلهم حكمته، كما يستلهم عز كسرى، في غرض من أغراضه الشعرية، مما ينم عن براعة هذا الشاعر في استلهام التراث، وتوظيفه له، فيقول مادحا:

رَبِيعُ النَّدَى نُورُ الهِدَايَةِ لَم يَزَل　　　فَيَنصُرُ مُؤتَزِرًا وَيُطعِمُ مُعتَرًا
إِذَا مَا احتَبَى فِي القَومِ أَو خَطَرَ اقتَدَى　　　بِحِكمَتِهِ لُقمَانُ أَو عِزِّهِ كِسرَى [3]

---

(1) ديوان الأعمى التطيلي، ص 171.
(2) ابن مرج الكحل حياته وشعره، مصطفى الغدير(د ط 1993م) دراسات أندلسية، العدد 10: ص 135.
(3) ديوان ابن سهل، ص 122.

وغالبا ما يميل إلى الجمع لأكثر من قيمة خلقية، أو خصلة محمودة في وصف الممدوح، لبيان القيم الخلقية التي يتحلى بها الممدوح، فنجد الشاعر الرصافي البلنسي، يستلهم شخصيتين مختلفتين في الصفة التي تميز بها كل منهما، فيأخذ من شخصية لقمان التاريخية في الحكمة، وشخصية سحبان في البلاغة والفصاحة أيضا، ليوظفهن في مدح عثمان بن عبد المؤمن الموحدي ويشيد به وبنسبه، ويحول نسبه إلى الملأ الأعلى لو كان ينتسب إليه إنسان، كما يشبهه في منطقه ورجاحة عقله وحكمته بلقمان وسحبان، في قوله من قصيدة مدحية:

يُنْمَى إلى الملأ الأعلى بِنِسبَتِه   لو نَاسَب المَلأُ العُلويّ إنسانُ
كأنّما يَتَعاطى فضلَ مَنطِقِه   عِندَ التكلّمِ لُقمانٌ وسَحبَانُ
يُغضِي عَنِ الذّنبِ عَفواً وَهُو مُقتَدِرٌ   وَيَترُكُ البَطشَ حِلماً وَهُو غَضبَانُ [1]

وقد أفصح الشاعر في هذه الأبيات عن نسب وصفات ممدوحه، فهو عالي النسب، وحكيم وفصيح وبليغ، كما يحمل صفات المسلمين وأخلاقهم، كالعفو عند المقدرة وحليم يملك نفسه عند الغضب، وهذه من صفات الشجاعة والرجولة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب)) [2]، وكل هذه الخصال والشمائل المحمودة التي استدعاها الشاعر، أراد منها إسقاطها على الممدوح، وجعلها من خصاله أيضا تقربا له، والإقرار بفضله.

وكذلك من الخصال الحميدة التي حرص العربي على الإشادة بها واستلهمها الشعراء في قصائدهم " الذكاء " الذي تمثل في شخصية " إياس " التاريخية، فهذا الشاعر مرج الكحل يتندم لذنوبه، ويلوم قريحته التي كانت في ذكاء إياس فيستلهم الشاعر هذه الشخصية لوصف نفسه، وليس غيره فيقول:

عَن خَاطِرٍ صَعبِ القِيَادِ مُخَاطِرُ   مِن كَثرَةِ الأَوزَارِ فِي وَسوَاسِ
وَقَرِيحَةٍ بِالسَّيِّئَاتِ قَرِيحَةٌ   خُمِدَت وَكَانَت فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ
هَزّت مَوَاعِظُكَ القُلُوبَ تَشَوُّقاً   حَتّى أَلانَت كُلَّ قَلبٍ قَاسِ [3]

وكما كان هناك استدعاء لشخصيات تاريخية ذات طابع إيجابي، فقد كان هناك أيضا استدعاء لشخصيات ذات طابع سلبي، و خاصة في اتجاهها الديني، ومعارضتها ومحاربتها للإسلام، فضلا عما تحمله من صفات الرذيلة من الكفر والكذب وغيرها، ومن هذه الشخصيات شخصية " أبي لهب " التي ذكرها القرآن في

(1) ديوان الرصافي البلنسي، ص 128.
(2) صحيح البخاري: 5، 2267.
(3) مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره، إعداد صلاح جرار(ط1 1993م) دار البشير، عمان الأردن، ص122

سورة كاملة، وقصته معروفة مع زوجته، في وضع الأذى في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم لإيذائه.

فيستلهم الشعراء تلك الشخصية، غير أن هذا الاستدعاء قد لا يكون لنقل واقعة أو شخصية حقيقية، وإنما ليصنع منها نتاجا أدبيا في صورة جديدة. فهذا ابن سهل يستلهم شخصية أبي لهب وامرأته في الغزل، ليرسم لنا منها صورة فنية جديدة، وثوبا بديعا، حيث يقول:

لَم تَكُن مِن نَار العَذُولِ بِقَلبِهِ ... مَا اكتَسَى خَدُّهُ القَانِي أَبَا لَهَبٍ
تَبَّت يَدَا عَاذِلِي فِيهِ وَجَنَّتُهُ ... حَمَّالَةُ الوَردِ لَا حَمَّالَةُ الحَطَبِ (1)

وللشاعر هنا التفاتات جميلة، استخرجها من هذه القصة، ولا سيما من شخصياتها، حيث استطاع أن ينقل شخصية أبي لهب من حالته الاسمية، إلى الصفة – أي صفة اللهيب – ليوظف منها الجمالية اللونية، والتي يتبادر منها إلى المتلقي لهب النار، المائل إلى الحمرة، والذي اتخذه الشاعر لونا جماليا لخد المحبوب، فضلا عن استدعاء شخصية امرأته حمالة الحطب، لتشارك هي الأخرى في صنع هذه الصورة الجمالية لخد المحبوب، ويعد استدعاء هذه الحادثة الراسخة في ذهن المتلقي، و التلاعب في دلالاتها، ونقلها من صفة إلى أخرى، هو خلق جديد للتراث، وهذا ما نبحث عنه، أي كيف يخلق الشاعر من التراث إبداعا وفنا جديدا، وليس كما يتصور البعض من إننا نبحث عن شكل التراث الجامد، في أشعار الشعراء .

وقد قام الشعراء المعاصرون كذلك باستدعاء الشخصيات التراثية التاريخية، كما فعل غيرهم ممن سبقهم من الشعراء لأغراض متعددة، ووفق طرق فنية مختلفة، فها هو الشاعر أحمد شوقي يشيد باللغة العربية. ويدفعه حبه لها إلى الإعجاب المطلق بصفا القديم، ونقاء فطرته، حتى ليكاد يذكرنا في هذا المقام بمنطقي أبي الطيب المتنبي، في انحيازه لحسن البداوة على جمال الحضارة، باعتبارها فطرية الأول، وتصنع الأخير، ولهذا نراه يستدعي من الشعراء القدامى، من أمثال امرؤ القيس، وقيس بن الملوح، ليعزز فكرته وموقفه من هذه القضية، فنراه يقول:

شَاعِرُ البَدْوِ ... جَاءَنَا ... كُلِّ ... مَعْنًى عَذِبِ
قَد جَرَت أَلسِنَتُهُم صَافِيَة ... جَرَيَانَ المَاءِ فِي أَصلِ العُشُبِ
سَلِمَت مِن عَنَتِ الطَّبعِ وَمِن ... كُلفَةِ الأَقلَامِ أَو حَشوِ الكُتُبِ
قَد نَزَلتُ يَومَ فِي بَادِيَةٍ ... عَ..وتُ امرَأَ القَيسِ " الحُقُبِ

---

(1) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص 81.

وَمَشَى المَجنُونُ فِيهَا سَالِيًا   نَفَضَ للَوعَةَ عَنهُ والوَصَبِ [1]

كما يقول الشاعر أحمد شوقي، في قصيدة يرثي بها الشاعر حافظ إبراهيم، وفي نفس سياق اعجابه بالقديم وبأهله من الشعراء الأوائل، كالشاعرين أبي تمام والبحتري، وذلك تأكيدا لرأيه وتقوية لحجته:

يَا حَافِظَ الفُصحَى وَحَارِسَ مَجْدَهَا   وَإِمَامَ مِن نَجَلَت مِن البُلَغَاءِ
مَازِلتُ تَهتُفُ بِالقَدِيمِ وَفَضلِهِ   حَتَّى حُمِيَت أَمَانَةُ القُدَمَاءِ
جَدَّدتُ أُسلُوبَ الوَلِيدِ وَلَفظِهِ   وَأَتَيتُ لِلدُّنيَا بِسِحرِ الطَّائِي
وَجَرَيتُ فِي طَلَبِ الجَدِيدِ إِلَى المَدَى   حَتَّى اقتَرَنَت بِصَاحِبِ البُؤَسَاءِ [2]

كما يطالعنا الشاعر حميد سعيد بقصيدة يقول فيها:

قُولُوا عَشِيَّتَهَا هَل فِي العِشقِ مِن حَرَجٍ   "وَرَدَّة" المَجدِ كَأَسٌ هَدَّت مَيَامِينَا
مَن قَائِدَ الفَتحِ وَالمَيمُونَ طَارِقِهِ   "مُوسَى النُّصَيرُ" لَهُ نَهدِي قَوَافِينَا
وَ"طَارِقُ" الخَيرِ تَشدُو فِي أَعِنَّتِهِ   مَوَاكِبُ النَّصرِ ظَفرًا يَبلُو تَحدِينَا
وَ"الدَّاخِل الصَقرِ" وَ"الرَّحمَنِ" يَتْبَعُهُ   وَ"النَّاصِرُ" الفَذُّ مِن أَفذَاذِ مَاضِينَا
مُجَاهِدٌ لِبَرٍ وَ "الجُلاَبِ" أَعَيُنَهُم   أُسدُ عَظِيفَةٍ كَانُوا شَدَاهِينَا [3]

ونلاحظ من خلال الأبيات السابقة، أن الشاعر قد قام بإيراد العديد من الشخصيات، مع وصف أفعالهم وصفاتهم، وكأن الغاية تبدو أحيانا مجرد تعداد أسماء، والحقيقة أنها محاولة لتثبيت هؤلاء الأبطال في عمق الذاكرة المعاصرة فالأندلس كانت باعثة المجد، وولادة الأبطال، وما أحوج الحاضر لمثل هذه الشخصيات، التي سطرت صفحات من المجد لهذه الأمة.

أما الشاعر محمد العقيلي فيقول في قصيدة، مدح بها الملك فيصل آل سعود، وهو في رحلة إلى أسبانيا، حيث يقارن بين ملك الماضي، وملك الحاضر فيقول:

وَرَحَ عَلَى الزَّهرَاءِ كَالبَدرِ فَازدَهَت   مُنَوَّرَةِ الأَرجَاءِ زُهرُ الحَدَائِقِ
كَأَنَّكَ فِيهَا "النَّاصِرُ الدِّينِ" قَد عَلاَ   عَلَى عَرشِهَا يَقوَدُ وَفدَ البَطَارِقِ
أَو"الدَّاخِلَ" المَيمُونَ فِي زَهوِ غَزوَةٍ   مُظَفَّرَةِ الأَعلاَمِ شَتَّى الفَيَالِقِ
وَشَاعَت بِأَروَاحِ الخَلاَئِقِ فَرحَةٌ   مِن الفَتحِ فِي تِلكَ الرُّبَى وَالشَّوَاهِقِ
فَهَبُوا بِأَشبَاحٍ مِن النُّورِ رَفرَفَت   تَحُومُ فِي أُفُقٍ مِن المَجدِ عَابِقِ
مَوكِبٌ كَالسُحبِ المُضِيئَةُ فِي الضُحَى   بِهَا "ابن نصيرٍ" والشَّهيدُ "ابن غَافِقِ"
غَمَامٌ مِن الطُّهرِ لمُبلّي السَّنَا   شِعُ بِأَروَاحِ لِمُلُكِ الغَرَانِقِ

[1] التراث والمعارضة عند شوقي، ص 41.
[2] التراث والمعارضة عند شوقي , ص 45.
[3] الأندلس في الشعر العربي المعاصر، عبد الرزاق حسين (دط 2004م) مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ص 114.

عَـَاهِـُ مـَو َـنٍ وَ لا َ ـى َ 'عـَرٍ " َ ـشبالُ ' عـَبّادٍ و َـفِيانُ " لـَرقٍ "[1]

كما جاء استدعاءات بعض الشعراء للشخصيات التراثية التاريخية، في إطار إظهار التناقض بين الماضي والحاضر، فالشاعر فاروق شوشة في قصيدة له تحت عنوان " سيف الدولة " يجري مقابلة بين ما يمثله سـيف الدولة، من مجد وانتصارات وعزيمة متأججة للفتح، وما يمثله واقعنا من حالة الضعف والانكسار والتهاون، وهو ما يظهره الفارق و الهوة العميقة بين الأمس واليوم، حيث يدخل الشاعر حلب في ركب سيف الدولة المنتصر، يغزو.. يطعن صدر الروم، ويجمع أسلاب الهلكى والمذعورين منهم، ويتحول يوم النصر بيارق وفيالق، ونسورا شما، وميامين..

لكن أبناء سيف الدولة – الذين هم نحن – باعوه ومرغوا اسمه، وكل الأسماء الجليلة في تاريخهم، في الوحل يوم تقاعسوا عن حمل ذلك السيف الفاتح، الذي طالما حمله سيف الدولة:

يَـا سَـيفَ الدّولـةِ أَ بنَـاؤكَ –يَـاالعِـارِ –
فِـي سُـوقِ الهَلكَـى بَـاعُوكَ
وعلَى لَسوارِكَ فِي يَافَا – آهٍ يَا يَافَا –صدَلوُكَ
وعلَى أرضِكَ فِي عُمَلنِ الثّكلَى دَاسُوكَ
دَاسُوا وَجهِكَ. وَجه أَحِبّائِك فَي حطِينِ
أَلقُوا بِاسمِكَ بِاسمِ بِلادِي فِي قَلبِ الطّينِ [2]

وفي قصيدة " واتكأ على رمحه " للشاعر ممدوح عدوان، يصور الشاعر الحسين بن علي واقفا وحيدا، حاملا جلال قضيته، ونبالة إصراره على عدم التنازل، لإيمانه بعدالة هذه القضية، بعد أن انفض عنه كل من حوله من أصحابه، حين اشتدت المعركة وحمي وطيسها، وحال جيش ابن زياد بين الحسين وبين الماء، ورفض أن يسمح لهم بالسقيا إلا إذا بايع زياد، وهي محنة تعرض لها أصحاب الدعوات النبيلة في كل العصور. يقول الشاعر:

حِـينَ أَتـكَ تلـكَ النّـداءُ
إِن كُنـتَ تَبغِـي شُـوبَةَ مَـاءٍ
فَدع علَـى الرّمالِ هَذَا السّيفُ
لَـم يَبقَ وَاحدٍ مِن الصّحابَةِ

---
(1) الأندلس في الشعر العربي المعاصر، ص 115.
(2) الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، 160.

وَ كُنتَ وَ اقِفًا تُحيطُ ُ لكَ الغَابةُ
وَ سَطٌ أُتُونِ الصّيفِ (1)

ومن خلال هذا الذي تعرض له الحسين ذاته، يدين الشاعر المعاصر، تقاعس الأمة وسلبيتها وتهاونها، حين تنتهك حرماتها، ويتم الاعتداء على أراضيها ومقدساتها، ويصبح كل مستباح من قبل قوى البغي والعدوان.

وقد كان للشاعر عز الدين المناصرة، وقفات مع الشخصيات التاريخية، في بعض قصائده، ومنها استدعاؤه لشخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس، الذي تمنى من خلال قصيدته أن يكون مثله، أو يتمنى أن يكون كل إنسان عربي مثله لما عرف عنه من الشجاعة والفروسية، لكن أنى لهذه الأمنية أن تتحقق، لأن الشاعر رأى في الإنسان العربي، إنسانا مسلوب الإرادة، ضعيف الشخصية، إنه مجرد أداة من وجهة نظره في أيدي الآخرين لتنفيذ الأوامر، دون مناقشة أو معارضة، أو هو مجرد إنسان عابث لاه، لا يعرف دوره الحقيقي في هذه الحياة. حيث يقول:

سَأَكُونُ جَاهزًا لإطِلاقِ الهّرِ
إِذا أَمَرَ السَيّد
فَسَأَذهَبُ إِلى مَقْهَى الأَندُلس
أَتقَمّصُ بِكَسَلٍ طَارِقٍ بنِ زَيّادِ
وأَقُولُ إِتبّعِيني أَيّتُهَا المَدِينَةِ
وعَينَاه اشتِيَاقَ اليَدّ فِي اللّيَالي الرّاعِفَاتِ
لأ ِ فَاعي المَاءِ (2)

وكذلك من الشخصيات الأخرى التي استدعاها المناصرة، شخصية أبي محجن الثقفي الأسير المقيد، الذي كانت له رغبة شديدة في المساهمة بتحرير بلده، لكنه لم يتمكن برغم ما بدله من محاولات متكررة، لأنه كان سجينا و((رمزا لأي إنسان عربي يتعرض للسجن والقمع)) (3) وهو بصورة أدق رمز للإنسان المقيد من قبل أنظمته تجاه حرية التعبير، تماما كالشاعر نفسه، الذي تعرض هو الآخر للنفي والتشريد، وحرم من كافة حقوقه المشروعة، لا لشيء إلا لأنه كان يريد التعبير عن أفكاره وهمومه، ويتمنى أن يعود لوطنه، ليحقق أحلام وطموحاته. وقد استدعى الشاعر عزالدين المناصرة هذه الشخصية في قصيدته المعنونة " أبو محجن الثقفي أثناء تجواله " حيث يقول:

(1) الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر , ص 155.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة، عزالدين المناصرة (ط5 2001م) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 490
(3) الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، خالد الكركي (د ط 1989م) دار الجيل، بيروت، ص 219.

كَانَ يَحمِلُ تَارِيخَ عِصيَانَه فِي الحَقَائِبِ، تَكتُبُ عَنه التَّقَارِيرُ،
يَمنَعُ مِن شَمِّ عِطرِ الأَحبةِ ثُمّ اغتِيَالٌ وهَا هُوَ يُثه فِي صبَاحِ الجَلِيدِ
يُعادُ إِلِى أَرضهِ بالقُيُودِ
ولَم يَشرَب الخَمرةَ الصاخِبةَ
أَتَيتُ إِلِيكَ إِقبَلِينِي وَهَذِي عُيُونِي، وَهَذِي سلاَسِلَهُم فِي الزَّنُودِ
أتَيتُك، هذِي كَارِيسهُس ◌ً ابُولُ علَيهاَ وأَرمِي بهَا فِي المِيَاهِ

وأبومحجن الثقفي كما يرى خالد الكركي ((من الشخصيات القلقة ذات التجارب التي تبدو في الغالب رومانسية، فخروجها على الواقع أو السلطة، لم يرتبط بجماعة سياسية عقائدية، وقلقها في الغالب قلق فنان غاضب، لا قلق ثائر جذري))(1). وأعتقد أن المناصــرة كان يعاني هو الآخر قلقا عنيفا، واضطرابا شديدا، فحاول بإصرار أن يتخلص منهما ليعيد لنفسه استقرارها وتوازنها، ويتضح هذا من تكراره للفعل " أفعل " في قوله:

وإِن أَمَرَنِـــي السَّـــيِّدُ بِطلاَقِ الهّـــرِ
وَأَقـــــــولُ هَـــــــذا مِحِ يفَـــــــا
وأَفعــــلُ كَمَـــــا فَعــــلَ أَبُــــومحُجِن
سأَفعلُ مثِلَمَـــا فَعــلَ أَبُــومحُجنٍ (2)

كما أن شخصية صلاح الدين الأيوبي، من الشخصيات الإسلامية، التي أصبحت من رموز الشعر المعاصر، فمن بين هؤلاء الشعراء الذين كانت لهم استدعاءات لهذه الشخصية، الشاعر الفلسطيني سميح القاسم، لما تحمله هذه الشخصية من دلالات النصر والفتح، فصلاح الدين الأيوبي هو بطل معركة حطين، وهي المعركة التي دارت بين المسلمين والصليبيين، في قرية بين المناصرة وطبرية، وقد حرر في هذه المعركة السواد الأعظم من الأراضي التي كان يحتلها الصليبيون، ولهذا تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت في التاريخ الإسلامي، لإنها كانت فاصلة، ورمزا لقوة المسلمين بعد جهاد طويل مع الفرنجة، لإعادة الإسلام إلى مجده، والمسلمين إلى عزتهم وكرامتهم، وهي كما يقول ((أبوالفداء ابن كثير الدمشقي في كتابه البداية والنهاية، كانت أمارة وتقدمة وإشارة لفتح بيت المقدس)) (3) وقد تزايد ذكر هذا البطل في كثير من أشعار الشعراء، ومنها هذه الأبيات للشاعر سميح القاسم:

(1) الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث , ص 219 .
(2) الأعمال الشعرية الكاملة، عزالدين المناصرة، ص 242.
(3) الناصر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبين في حطين، زاهية الدجاني (د ط 2005م) دار الكتاب العربي، بيروت ص 7.

لا كُتُبُنَا المُلقاةُ تَحتَ نِعالِ هولاكو
ولا فِردوسُنا المَردودُ فِردوساً إلى أَهلِهِ
ولا خَيلُ الصَّليبيّينَ
ولا ذِكرى صَلاحِ الدّينِ
ولا جُنديُّنا المَجهولُ في حِطّينِ (1)

وربما ينقد الشاعر سميح القاسم بذكره لصلاح الدين في هذه الأبيات، الواقع السياسي العربي المعاصر، وإهماله للقضية الفلسطينية.

وكما أن هناك شخصيات تاريخية تمثل الوجه المشرق، فإن هناك في تراثنا شخصيات ذات وجه مظلم، تمثل واقع الفساد والظلم، ويعد الحجاج بن يوسف أكثر شخصيات هذا النوع شيوعا في شعرنا المعاصر، ربما لأنه أكثر الشخصيات تمثيلا لمعنى البطش والاستبداد فهو في رؤيا شعرائنا رمز لكل قوة باطشة تعمل على قمع الحق بالقوة، وعلى إخماد كل صوت يحاول أن يرتفع في وجه طغيانها.

يقول الشاعر أدونيس في " مرآة الحجاج " مصورا بغي الحجاج – ممثل كل سلطة قاهرة– وكيف أن هذا الظلم يكون عاملا من عوامل فناء هذه الأمة وانهيارها، فالحجاج يفرض دائما رأيه بقوة القهر، وليس بقوة المنطق والإقناع حيث يقول أدونيس:

وَصَعِدَ المِنبرَ ... فِي يَدَيْهِ قَوسٌ وَفوقَ وَجهِهِ
لِثَامُ
وَقَالَ بِالسِّهامِ والقِناعِ، لا بِالصَّوتِ وَالكَلامِ :
" أَنَا ابنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايَا "...
أَنَا هُوَ السُّؤالُ وَالنِّبْراسُ
أَنَا هُوَ الفِراسُ
وَيلٌ لِمَن يَكُونُ مِن فَرائِسِي
وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ أَن:
... زُلزِلَ المَكانُ
وَاهتَزّتِ البِلادُ مِثلَ شَجَرةٍ
وَسَقَطَ المَسجِدُ مِثلَ ثَمَرةٍ
وَسَقَطَ الزَّمانُ (2)

---

(1) ديوان سميح القاسم (د ط 1987م) دار العودة، بيروت، ص 52.
(2) المسرح والمرايا، أدونيس، ص 87.

ويطالعنا الشاعر الليبي علي الفزاني، مستعينا بالتراث التاريخي وبشخصياته، ومصورا ليبيا في فترة من فترات الزمن بـ " كربلا " بسبب اختلاط أوراق السياسة فيها، وعدم معرفة من يناصر الثورة في تلك المرحلة، ممن هو ضدها وكذلك محاولة البعض استغلال الظروف الراهنة، التي كانت تمر بها البلاد في تلك الأيام لإحداث الفتن، وبث الإشاعات والفوضى، وهو ما جعله يستدعي في قصيدته لفظة " قريش " فقريش لم تكن جميعها مع الإسلام، ولا مع دعوته، بل انقسمت بين معارض ومؤيد، وفي هذه الصورة تجسيد لحالة الانقسام السائدة في المجتمع في ذلك الوقت. يقول الشاعر:

إِنّ زَادِي لَم يَزَل حُرّيَتِي　　　وَأَنَا الرّقْصُ إِلَى يَومِ المَعَادِ
فَاصْلُبُونِي فَوقَ حَرفِي وَاقِفًا　　　فَأَنَا المَصْلُوبُ فِكْرًا وَمِدَادَ
كَربلاءُ لَم تَزَل قَائِمَةً　　　ورَهِيبُ السّوطِ فِي كَفّ زِيَادِ
لا تَقُل نَحنُ قُرَيشٌ إِنّنَا　　　قَومُ كَهفٍ نَتَسَلّى بِالرّقَادِ[1]

وقد رمز الشاعر في هذه الأبيات بزياد للسلطة الغاشمة المستبدة، أما الكهف فقد كان رمزا للسلبية والرضوخ لواقع الظلم والمهانة، الذي يتنافى مع عشق الحرية، والإصرار على نيلها، وهو ما عبر عنه بكثير من الانفعال والحماسة فهي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الشعوب تحقيق، آمالها وتطلعاتها.

وقد وجد الشاعر علي الفزاني أيضا من الشخصيات التاريخية الأخرى، ما يوافق طبيعة أفكاره، كشخصية زرقاء اليمامة، التي كثيرا ما عرفنا عنها من كتب التراث، أنها كانت تبصر على بعد ثلاث ليال ((وقد أنذرت قومها جديس ذات مرة من جيش حسان بن تبع اليمني الذي جاءهم غازيا ومتخفيا، حين أمر جنوده أن يضع كل فرد من أفراد جيشه أمامه شجرة، يختفي وراءها خوفا من أن تراهم اليمامة، لأنه كان يعلم بحدة بصرها، ولكن اليمامة عندما أبصرتهم أخبرت قومها، وعندما سألوها ما ترين؟ قالت أرى رجلا في شجرة معه كتف " يتعرقها " [2] ونعل " يخصفها " [3]))[4]. والدلالة الأساسية لزرقاء اليمامة في الشعر المعاصر، هي القدرة على التنبوء وكشف الخطر قبل وقوعه، وتنبيه الآخرين له، وقد وظف الشاعر علي الفزاني هذه الدلالة، ليظهر عجز الأمة العربية وفشلها في رؤيتها للحاضر واستشرافها للمستقبل، برغم كل ما في هذا العصر من وسائل العلم المتطورة، التي

---

(1) ديوان دمي يقاتلني الآن والقنديل الضائع، ص 82.

(2) عرقت العظم وتعرقته إذا أخذت اللحم بأسنانك نهشا. لسان العرب. مادة: عرق مج 10، ص 244.

(3) الخصف والخصفة مما خصف به النعل، والاختصاف أن يأخذ العريان ورقا عراضا، فيخصف بعضها على بعض ويستتر بها. لسان العرب: مادة خصف. مج 10، ص 72.

(4) مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن حسين المسعودي (د ط 1984م) دار الأندلس، لبنان، مج 2: ص 118، 119.

يمكن توظيفها في زمن السلم، وفي زمن الحرب، بعد أن اختلفت صور المواجهة، بين الحرب المباشرة، وبين التسلل عن طريق العملاء والجواسيس، وهذا في حد ذاته يحتاج إلى كثير من التبصر والفطنة، وضرورة محاولة قراءة الحدث قبل وقوعه، وهو ما أراده الشاعر من استدعاء هذه الشخصية حيث يقول:

أزرقاءُ اليمامةِ إنّما يلوحُ لعينيكِ ليس شجرُ
ولا كتائبٌ منتثراتٌ من الجندِ لكنّه شيءٌ محيقَ الخطرِ
مضت أزمنُ السّيفِ ومَرّ وكرّ
أرى الآن ما لا تراه آلافُ اليمامات فأنا أطوي العصرَ
أزرقاءُ اليمامةِ أراكِ كبرتِ
وقهرُ الشّعوبِ كبُر (1)

ويقول الشاعر راشد الزبير السنوسي في إحدى قصائده الشعرية، وهو يستدعي بعض الشخصيات التاريخية، ليقوم بتوظيفها في أغراضه، ويجعل منها وسيلته في التعبير عن بعض القضايا، التي تشغل باله، وتستحوذ على اهتماماته، حيث يقول:

قبلي التي حلمتُ في صبانا ... بهن ألف تشنّ ازدحام
لتزرعَ في كلّ قلبٍ رُبا ... وتطلق في الأفق سربَ الحمام
ألا يلم ساءاتِ سوقِ الجريد ... ومقهى العروي وسوقُ الظلام
أعنقْ إلى خافقي نسمةٌ ... تغازل لصدرٍ وتأبى المقام
ألم يأتهم أن نخل الرّصافةِ ... في ربقةِ الأسرِ يشكو الأوام
وأنّ "أبا جعفرٍ*" و"الوليد*" ... قد امتهنا واستبيح المقام
وأن أحابيلَ "نقفورٍ*" تلتفّ ... من حولنا بدعوى السّلام
وأنّ "زبيدة* بنت الخلائف" ... تحيا على الخبزِ دون ائتدام
وأنّ عيون المها الهائمات ... وراء السّواد شكونّ السّقام (2)

---

(1) ديوان دمي يقاتلني الآن والقنديل الضائع في المدن الوثنية، ص 40.

* " أبو جعفر المنصور: عبد الله بن محمد بن علي بن العباس. ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عنى بالعلوم من ملوك العرب. كان غارفا بالفقه والأدب، مقدما في الفلسفة والفلك، محبا للعلماء. ولد في الحميمة من أرض الشراة قرب معان، وولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة 136 هـ، وهو من قام ببناء مدينة بغداد وأمر بتخطيطها سنة 145هـ وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية. توفى ببئر ميمون من أرض مكة محرما، ومدة خلافته 22عاما. ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ط 10 مج 4: ص 117.

* " الوليد: الوليد بم يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس 88 – 126هـ من ملوك الدولة المروانية بالشام. كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم... ولي الخلافة سنة 125هـ بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك، فمكث سنة وثلاثة شهور، نقم عليه الناس حبه للهو. فبايعوا سرا ليزيد بن عبد الملك، فنادى بخلع الوليد، فانصرف إلى البخراء، فقصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه في قصر النعمان بن بشر، وكان الذي باشر قتله عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وحمل رأسه إلى دمشق فنصب بالجامع ولم يزل أثردمه على الجدار، إلى أن قدم المأمون دمشق سنة 215هـ فأمر بحكه. ينظر الأعلام مج 8: ص 123.

* " نقفور: أحد ملوك الروم غي زمن هارون الرشيد، وحدثت بينهما مناوشات أفضت إلى إذعان نقفور ورضوخه لطلبات الرشيد، وكان يرسل إليه القيمة المتفق عليها كل عام بالإضافة إلى الهدايا. فكانت بينهما مودة ظاهرة تخفي تحتها خبث وخداع. ينظر: الأعلام: مج 8 / ص 96.

استطاع الشاعر من خلال هذه الأبيات، أن يتجول بنا من مكان لآخر، فقد بدأها بسوق الجريد، ومقهى العمرودي وسوق الظلام، وكلها فضاءات مغلقة ذات صلة مباشرة بالشاعر، ولكنها جاءت في رحب واسع، ألا وهو أن أحابيل " نقفور" تلف من حولنا بدعاوي السلام، وأن بنات الحسب تضام، وأن عيون المها التي سبق وأن تغنى بها الشاعر العباسي، أصبحن يشكين السقام، ثم يأخذنا الشاعر إلى ما يجري على أرض العراق الأن، وهم يريدون إذلاله.

فالشاعر حاول خلق نوع من المقارنة بين الماضي والحاضر، عبر استدعاء بعض الشخصيات، وبعض الأحداث، التي مر بها الواقع العربي، وما صاحبه من أوضاع مأساوية متردية، أثارت في الشاعر الكثير من الشجون والحسرة، حين استدعى كلا الصورتين.

وقد عمل الشاعر أحمد الشارف موضوع هذه الدراسة، على استدعاء بعض الشخصيات التاريخية في شعره كذلك، وعمل على توظيفها بما يخدم غرضه الشعري فها هو نجده يقول في إحدى قصائده:

يّهَا الشّاعرُ المجِيدُ رآكَ اليَـ ... ـمَ مِن شِيعتي ومِن أنصاري
إنّ لِلّهِ فِي الأنَامِ شُؤُونًا ... واعتِبَارًا إِلَى أُولِي الأبصَارِ
أَبدعَ الصّنعَ فِي البِحَارِ كمَا أبـ ... ـدعَ فِي الجَوّ آيةَ الطّيّارِ
كُلّ يَومٍ تُبدِي صُرُوفُ اللّيَالِي ... عَجَبًا مِن لَطَائِفِ الأسرَارِ
عِبَرٌ تَملأُ الفُؤَادَ خُشُوعًا ... وخُضُوعًا لِلوَاحِدِ القَهّارِ
وانظُرِ "المَهوَوِيّ" إذ جَاءَ فِي ... أخبَارِهِ عَن "جُهَينَةِ الأخبَارِ"
إِنّ وجهَ الحَبِيبِ فِيهِ كمَا تَعلَـ ... ـمُ مَا لا يَكُونُ فِي الأقمَارِ
لَستُ أنسَى مَحَاسِنَ البَدرِ لَكِن ... حُسنُ وَجهِ الحَبِيبِ عَينُ اختِيَارِي
أنَا لَولاهُ مَا عَانَيتُ شَو ... قِي ولا عَدِمتُ اصطِبَارِي
لا ولا رَقّ لِي النّسِيبُ ولا التّشـ ... ـبِيبُ يَومًا ولا خَلَعتُ عِذَارِي
نَرجِسٌ فَوقَ وَردَةٍ تَرَكَتنِي ... هَائِمَ القَلبِ دَائِمَ التّذكَارِ
فَحَيا الحَبِيبُ فِيهِ كمَا تَعلَـ ... ـمُ مَا لا يَكُونُ فِي الأقمَارِ
لَيسَ مِن قَصدِكَ الخِلافُ ولَكِن ... فَتحُ بَابٍ لِجَيّدِ الأشعَارِ [1]

الحقيقة أن هذه الأبيات جاءت ردا على الشاعر أحمد رفيق المهدوي، حين بعث الشاعر الشارف ببيت شعري، وطلب من المهدوي الرد عليه، والبيت يقول:

---

* " زبيدة بنت الحلائف: زبيدة بنت جعفر بمن المنصور الهاشمية العباسية 216هـ زوجة هارون الرشيد وابنة عمه. من فضليات نساء العرب وشهيراتهن، وهي أم الأمين العباسي، أسمها أم العزيز، وغلب عليها لقبها زبيدة. تنسب إليها عين زبيدة في مكة. تزوج بعا الرشيد سنة 156هـ، ولما مات وقتل ابنها الأمين اضطهدها رجال المأمون، فكتبت إليه تشكو حالها، فعطف عليها وجعل لها قصرا في دار الخلافة. ينظر الأعلام: مج 3 ص 42.

(2) ديوان الخروج من ثقب الإبرة، راشد الزبير السنوسي (ط1 1999م) الدار العربية للكتاب، ليبيا، ص 30.

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 306، 307.

يَا فَقِيهِ البَيَانِ نُجُومَ تَمَثّل ... قَمَرًا فِي سَمَائِهِ قَدْ تَجَلّى
أَمِنَ الحَقّ أَن يَكُونَ شَبِيهًا ... بِمَحيا الحَبِيبِ أَم هُو أَحلَى

ورد عليه الشاعر أحمد المهدوي، بقصيدة يقول في مطلعها:

يَا أَمِيرَ البَيَانِ هَذَا سُؤَالٌ ... كَانَ حَتّى جَوَابِهِ مِنكَ لَى
كَيفَ يُؤْتَى وَمَالِكٌ فِي مَكَانٍ ... مَلَكَ الحُكمِ وَحدَهُ وَاستَقَلّ[1]

كان هذا الحوار الشعري الرائع الذي دار بين الشاعرين من أجمل الحوارات والسجالات الأدبية التي دارت في تلك المرحلة من تاريخ الشعر الليبي، غير أن ما يهمنا في هذا المقام، هو استدعاء الشاعر، لشخصية " جهينة " التاريخية، التي كان يضرب بها المثل في صدق الخبر ويقينه فيقال: وعند جهينة الخبر اليقين. وقصة هذا المثل معروفة لا تستحق السرد، فهومن الأمثال التي تداولها الناس على مر العصور، حتى صاروا يستدعونه كلما أرادوا تأكيد خبر ما أو معلومة ما، وهذا ما فعله شاعرنا أحمد الشارف، فقد استدعى هو الآخر هذه الشخصية من عمق التاريخ، ليزكي بها مقالة صديقه الشاعر أحمد المهدوي، في معرض إجابته عن سؤاله، الذي أشرنا إليه آنفا. وبهذا جاء توظيف هذه الشخصية مناسبا لغرض الشاعر وداعما لرأيه في ما طرحه.

ومن الشخصيات التاريخية الأخرى التي استدعاها الشاعر أحمد الشارف في أشعاره شخصية جحا، وهي من الشخصيات التراثية التي اشتهرت بالظرف والنادرة والفطنة وسرعة البديهة، غير أن هذا الوجود التاريخي لجحا، لا يعني أن كل ما يروى عنه ينسب إليه، بل أن عملية التطور الحكائي لميراث جحا، خرجت عن إطار الشخصية الحقيقية وتعددتها، لتنتقل الشخصية الأصلية من عالم الواقع إلى عالم الخيال. وقد جمعت شخصية صفات أهلتها للمكانة التي تربعت بها في قلوب الجميع، فجحا الذكي والمتغابي والمتحادق دوما، للحصول على حقه في مواجهة من يفوقه قوة، وهو كثيرا ما يظهر في صورة رب الأسرة، الذي يكافح ظروف الحياة للعيش بكرامة. وتظل صورة جحا هي الأقرب إلى الإنسان العربي بعيوبه ومميزاته، بخيره وشره، وقلما تقرأ قصة من قصص جحا لا تذكرك بموقف وجدت نفسك فيه ذات يوم، والقرب من الناس والتعبيرعنهم بفن النكتة والحكاية المسلية، ضمنا لجحا حضورا متجددا على الدوام، وحجز له مقعد الخلود في الذاكرة العربية، فصارت حكاياته حكما تروى هنا وهناك، وهو ما دفع شاعرنا أحمد الشارف أن يخصص له

[1] أحمد الشارف دراسة وديوان , ص 304.

قصيدة تحمل اسمه " جحا " حاول فيها أن يصور جزءا من حياته حيث يقول في بعض أبيات قصيدته:

إني لأعجب من جحا وحياته ... فيما لديه من النوادر والسير
فلعل ترجمة الحياة تعثرت ... لم أدر كيف أقول من خير وشر
بالعقل والتقليد إن خلا له ... لقوي البديهة عبرة لمن اعتبر
أدب الأديب لذي البديهة لم يزل ... يزهو كما يزهو الجمال لذي البصر
فكأنه إن مات حي لم يمت ... من كان بعد الموت ينفع أو يضر
هذا قصارى القول مني في جحا ... ولعل مني العذر أوسع في النظر [1]

أما الشخصية التاريخية التراثية الأخرى، التي استدعاه الشاعر فهي شخصية المغني " معبد " وهو معبد بن وهب الذي اشتهر بالغناء في العصرالأموي، وتفوق على سائر مغني عصره، لما كان يملكه من جمال الصوت، وحسن الأداء في غنائه، حتى ذاع صيته في كل الأقطار العربية والإسلامية، وقد عمل الشاعر أحمد الشارف على استدعاء هذه الشخصية، ليعبر من خلالها عن دلالة الفرح والبهجة والنشوى التي يشعر بها، وهو يصور حسن إحدى الفتيات، ويعبر عن افتتانه بروعة جمالها ودلالها، وقد رأى في شخصية معبد خير من ينقل هذه المشاعر والأحاسيس، ويجسدها بصوت شجي ونغم رائع. فيقول الشاعر الشارف في بعض أبيات هذه القصيدة:

تعجبت المليحة إذ رأتني ... على الشوق المبرح صوت أحمد
وأوهمها شعار العلم أني ... أخو نسك بمحراب تهجد
عذولي قد أطلت إليك عني ... فلا تكثر علي ولا تندد
ودع عنك الملامة إن قلبي ... على حب المليحة قد تعود
أنا الصب المتيم في هواها ... إذا هب الصبا يوما تنهد
أهيم بكل سحر بابلي ... وأشطح في الغرام بصوت " معبد "
تعجبت المليحة إذ رأتني ... على الشوق المبرح صوت أحمد
وأوهمها شعار العلم أني ... أخو نسك بمحراب تهجد
ولم تعجب لألحاظ كها ... سيوف وهي في الأحشاء تغمد
وتفترس الغضنفر وهي ظبي ... فواعجبا إلى ظبي لأسد [2]

ويقول الشاعر أحمد الشاعر، وفي معرض نصائحه لابنه:

كن يا بني لأمر دينك حافظا ... ومدبرا لشؤونك الحيوية
لقمان قد بذل النصيحة لابنه ... فاحرص على كلماته الحكمية

[1] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 261.
[2] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص163، 164.

تفنى الدنيا وليس يذكر بعدها   إلا جميل الصنع فانك لأريه
ورذائل الأخلاق ترجع كلها   لثلاثة في النفس غير خفيه
حسد وكبر ثم حرص واعتبر   إن الثلاثة أصل كل بليه
هي قوة عقلية أو قوة   شهوية أو قوة غضبيه
واحفظ قواك الخمس فهي وسيلة   كبرى لنيل سعادة أبديه
العلم والعمل الصحيح كلاهما   موقفان على القوى البشريه
والمرء يقنعه قليل متاعه   حتى يذوق حلاوة المدنيه[1]

هكذا صاغ الشاعر أحمد الشارف نصائحه لابنه، في أسلوب تقريري مباشر، استدعى من خلاله شخصية " لقمان " الحكيم، تلك الشخصية التاريخية التراثية التي حملت كل دلالات الحكمة، ورجاحة العقل وسداد الرأي، لتكون وسيلته لتقديم إرشاداته وآرائه، ويأتي في مقدمتها المحافظة على دينه أولا، فصلاح العلاقة بين العبد وربه تعني صلاح الدنيا والأخرة، ثم يأتي في المقام الثاني علاقة الإنسان بالعباد، وما يتوجب فيها من التواضع وحسن الخلق، والابتعاد عن الحسد واتباع الشهوات والرذيلة، والرضا بما يقســمه الله له، والاتجاه إلى العلم و العمل الصالح، فهما أيضا من أسباب النجاح، وبلوغ الغايات. وكل مضمون هذه النصائح قد وردت في القرآن، على لسان لقمان. يقول المولى عز وجل: { وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم } [2] وقال عز وجل: { يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير (16) يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (17) ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور (18) واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير } [3].

بهده الصورة ووفق هذه الكلمات، جاءت نصائح لقمان لابنه، وهي لا تختلف في مجملها، عن ما قدمه الشاعر أحمد الشارف لابنه أيضا، ولعل هذا هو السبب وراء استدعاء الشاعر لهذه الشخصية، واستلهامه لدلالاتها ومضامينها. يحسب لهذا الشاعر عشقه لتراثه، وحرصه على العودة إليه، والإفادة من مصادره وعناصره المتنوعة، مهما اختلفنا معه أو اتفقنا في بعض الجوانب الفنية .

ومن قصائد المدح للشاعر أحمد الشارف، قصيدته التي يمدح فيها إحدى الطرق الصوفية، وهي ما يسمى بـ " الساعدية " وقد كان الشاعر شديد التعلق بهذه الطريقة،

---

[1] المصدر نفسه، ص 360.
[2] سورة لقمان، الآية 13.
[3] المصدر نفسه ، الآيات 16 – 19.

وشديد التعلق أيضا بمنتسبيها، ولهذا نراه يثني عليهم، ويعلي من ذكرهم في إحدى قصائده، ويجعل من الإنتساب إليهم، نسب يفاخر به، بل يذهب إلى أن من لم ينتسب إلى هذه الجماعة، فلن ينفعه ولا يغني عنه أصل ولا مال، ولم يحمه حتى " كليب ولا معد ولا نزار" ولعل الشاعر في استدعائه لشخصية كليب، ولقبيلتي معد ونزار، أراد أن يبالغ في مدح هذه الجماعة، ويعظم من شأنها ومن قيمتها، في الدنيا والآخرة، ولهذا نراه يقول:

فِي حُبِّكُم يَخلَعُ العِذَارَ	وَتَهجُرُ الأَهلُ والدِّيَارَ
يُعَطِّرُ الكَونَ مِن شَذَاكُم	وَتَعمُرُ البِيدَ والقِفَارَ
وأَيُّ مَغنًى بِهِ نَزَلتُم	فَكُلُّ حَصبَائِهِ نُضَارَ
فَكُلُّ وَقتٍ بِكُم رَبِيعٌ	يَزهُو بِهِ النُّورُ وَالبَهَارَ
قَد أَثبَتَ اللهُ فِي يَدَيكُم	تِجَارَةً مَا لَهَا بَوَارَ
للهِ للهِ قَد فَعَلتُم	بِالقَلبِ مَا تَفعَلُ العُقَارَ
مَن لَم يَجِد نِسبَةً إِلَيكُم	لَم يُغنِهِ الأَصلُ وَالنِّجَارَ
كَلاَّ وَلَم يَحمِهِ كُلَيب	وَلاَ مَعَد وَلاَ نَزَار
وَهَا أَنَا العَبدُ فِي حِمَاكُم	لاَ مَجدَ عِندِي وَلاَ فَخَارَ
فَكَائِسُونِي مِن شَرَابٍ	فِي عُقدَةٍ مَا لَهَا خِيَارَ
لَعَلَّ نَفسِي إِلَى رِضَاكُم	يَجُرُّهَا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ (1)

هكذا حاول الشاعر أحمد الشارف، توظيف هذا العنصر من عناصر التراث، والمتمثل في التراث التاريخي، وما اشتمل عليه من أحداث و وقائع تاريخية، كان لها حضورها الدائم في ذاكرة الشعراء، لخصوصيتها أولا، ولما كان لها من دور في صنع أمجاد هذه الأمة، وتاريخها الحافل بالبطولات والانتصارات التي تحققت على أيدي أبنائها، وكثيرا ما يعود الشعراء ومنهم الشاعر أحمد الشارف لهذه الأحداث والوقائع، بسبب حالات الانكسار والضعف والمهانة التي تمر بها الأمة، بحيث يعمل الشاعر على خلق نوع من المقارنة بين الماضي والحاضر، رغبة منه بتذكير الأمة بماضيها وتاريخها، و كذلك استفزازها لحشد طاقاتها وتوحيد جهودها، لاستعادة كرامتها وعزتها، التي يراها الشاعر قد امتهنت وداس عليها أعداؤها، بعد ما أعزها الله وأعلى شأنها.

وكما عمل الشاعر على استدعاء الأحداث والوقائع التاريخية، فقد استدعى الشخصيات أيضا، في محاولة للإفادة من هذا العنصر التراثي، وتوظيفه في في إيصال أفكاره وآرائه ومواقفه للمتلقي، غير أن الشاعر أحمد الشارف لم يعمد إلى إخراج أي من هذه الشخصيات عن سياق دلالاتها التاريخية التي عرفت بها، بل جاء

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 331.

توظيفه متسقا تماما مع هذه الدلالات خلافا لبعض الشعراء الذين استطاعوا أن يعطوا لبعض الشخصيات التراثية والتاريخية، صورة جديدة تستطيع أن تتواءم مع روح العصر، وتكون وسيلة الشاعر في التعبيرعن قضاياه المعاصرة، ((أي الامتزاج المتكافئ بين ما هو تراثي وما هو معاصر، حيث يندمج الجانبان في بناء فني واحد، مظهره تراثي ومخبره معاصر، والشاعر الجيد هو الذي يستطيع تحقيق هذه المعادلة الصعبة فإذا طغى أحد طرفي المعادلة على الآخر اختل البناء الفني)) [1]. وهذا ما لم نلمسه عند شاعرنا أحمد الشارف، عبر قصائده التي جعلناها محل استشهاد ومحل دراسة وتحليل، حيث طغى على استدعاءاته الأسلوب النمطي، أو الأسلوب التقليدي، عند مقاربته لبعض الشخصيات التاريخية، ولكن برغم كل ذلك تظل للشاعر خصوصيته، ورؤيته الفنية التي نحترمها ونجلها، مهما اختلفنا معه في كيفية التوظيف أو في طريقته.

[1] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 365.